

مدينة تلمسان في المصادر التاريخية المملوكية

نصوص سياسية لبدر الدين محمود العيني في كتابه "عقد الجمان"

The city of Tlemcen in Mamluk historical sources Political texts by Badr Al-Din Mahmoud Al-Ayni in his book "Equd Aljuman"

د. بالأعرج عبد الرحمن

قسم التاريخ - جامعة تلمسان

abderrahmane.bellaredj@univ-tlemcen.dz

dr.bellaredj@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/05/09 تاريخ القبول: 2021/06/10 تاريخ النشر: 2021/06/30

Abstract :

The city of Tlemcen is an Islamic metropolis par excellence, and the evidence for this is the material and intangible effects that strike deep in history, which confirm the identity of the Arab-Islamic city, tinged with local and Andalusian characteristics. The city is mentioned in the earliest history, geography and travel books, It was well-known to Al-Mashareqiya for being the capital of the Central Maghreb region and its state during the era of the Almoravids and the Almohads, then the capital of the Kingdom of Bani Abd al-Wad al-Zayani since the year 633 AH / 1236 CE. Mamluk historians wrote about it, including the historian Badr al-Din Mahmud al-Ayni, who died in the year 855 AH / 1451 CE, in his book " Equd Aljuman fi Tarikh 'Ahl Alzaman".

Through this article, we will present the texts dated to the city of Tlemcen in the book of Al-Aini, highlighting their sources and their scientific value, following the analytical and critical historical method, as our contribution to drawing the attention of researchers to such texts in the history of Tlemcen and the Islamic West.

Keywords: Tlemcen; The Mamluks; Badr al-Din al-Ayni; History.

ملخص:

تعد مدينة تلمسان حاضرة إسلامية بامتياز والشاهد على ذلك الآثار المادية واللامادية الضاربة في عمق التاريخ، والتي تؤكد على هوية المدينة العربية الإسلامية المصبوغة بالخصائص المحلية والأندلسية. وذكرت المدينة في أقدم كتب التاريخ والجغرافية والرحلات، وكانت مشهورة لدى المشاركة لكونها عاصمة إقليم المغرب الأوسط وولايته خلال عهد المرابطين والموحدين ثم عاصمة لمملكة بني عبد الواد الزيانية منذ سنة 633 هـ / 1236م، وكتب عنها المؤرخون المالكي ومنهم المؤرخ بدر الدين محمود العيني المتوفى سنة 855/1451م في كتابه "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان".

ومن خلال هذا المقال سنعرض للنصوص المؤرخة لمدينة تلمسان في كتاب العيني، مبرزين مصادرها وقيمتها العلمية، متبعين المنهج التاريخي التحليلي والنقدي، مساهمة منا في لفت عناية الباحثين لمثل هذه النصوص في التأريخ لمدينة تلمسان وللغرب الإسلامي عموماً. **الكلمات المفتاحية:** تلمسان، المالكي، بدر الدين العيني، علم التاريخ.

مقدمة

يعد علم التاريخ من العلوم التي اعتنى بها المسلمون منذ عهودهم الأولى، وذلك لأهميته الخطيرة في حياة الأمة، وازدهر هذا التخصص مستقلاً بمنهج دقيق أسس له علماء

الحديث في بداية الأمر، ثم وصل إلى مرتبة العلم القائم على منهج خاص به هو المنهج التاريخي في القرن الثامن الهجري/14م، وألف فيه الكثير وظهرت له اهتمامات عديدة وانبثقت عنه فروع علمية أخرى تساهم دوما في إثرائه.

وكان المؤرخون الأوائل يكتبون التاريخ بنظام الحوليات أي تتبع حوادث السنين سنة بعد سنة وذكر ما وقع بها من الحوادث الكبيرة والأمور العظيمة ومن توفي بها من أشهر الأعيان.

ويعد عصر المماليك من مراحل التاريخ الإسلامي المشرقة سياسيا وحضاريا، نظرا لما تم تحقيقه من منجزات حضارية لا زالت تشهد على عظمة الدولة المملوكية، وتميز هذا العصر ببروز نخبة جليلة من العلماء يدل على رسوخها في تخصصاتها بما تركته من مؤلفات، ومن هذا المنطلق يمكن أن نطرح إشكالية تتمحور حول تطور الكتابة التاريخية خلال هذا العصر ومدى اهتمام المؤرخين المماليك بأخبار الغرب الإسلامي عامة ومدينة تلمسان على وجه الخصوص. ولما كان المقال مخصصا للمؤرخ بدر الدين محمود العيني ونصوصه في كتابه عقد الجمان، فمن هو العيني؟ وما هي القيمة العلمية لكتاباته التاريخية عموما؟ وما نصيب مدينة تلمسان فيها؟

إن الهدف من هذا المقال ليس نقد نصوص العيني ومقابلتها بالنصوص المغاربية التي أرخت للوقائع نفسها، فهو باب بحث آخر، بل توجيه الدارسين من الطلبة والباحثين في تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط إلى ضرورة الاعتناء بالمصادر المشرقية ونصوصها وعدم الاكتفاء بالمصادر المغاربية فقط.

1. ترجمة الشيخ بدر الدين محمود العيني¹:

هو محمود بن موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف بن محمود، بدر الدين أبو محمد وأبو الثناء بن القاضي شهاب الدين بن القاضي شرف الدين العيتابي أصلاً ومولداً ونشأة، المصري داراً ووفاء، حنفي المذهب قاضي قضاة مصر وصفه معاصره المؤرخ المملوكي "ابن تغري بردي الأتابكي" بقوله: "العلامة، فريد عصره، ووحيد دهره، عمدة المؤرخين، مقصد الطالبين... الحنفي قاضي قضاة الديار المصرية، وعالمها، ومؤرخها"².

ووصفه بقوله: "كان شيخاً أسمر اللون، قصيراً، مسترسل اللحية، فصيحاً باللغة التركية، لكلامه في التاريخ وغيره طلاوة، وكان جيد الخط، سريع الكتابة، ... وله نظم ونثر"³.

ولد في 26 رمضان 762هـ، بمدينة عيّناب⁴ ونشأ بها، حيث حفظ القرآن الكريم على نظام التربية الإسلامية الأصيل، ارتحل مع أبيه إلى مدينة حلب⁵ وتفقه بها، ثم زار بيت المقدس والتقى بالشيخ "علاء الدين أحمد بن محمد السيرامي الحنفي"⁶ شيخ المدرسة الظاهرية برفوق⁷، فاستقدمه معه إلى القاهرة عند رجوعه سنة 788هـ، توفي أبوه الذي كان قاضياً على عيّناب سنة 784هـ، وقرره خادماً بالمدرسة إلى غاية 790هـ تاريخ وفاة الشيخ علاء الدين السيرامي، وقد انتفع به العيني كثيراً.

ثم قام الأمير "جركس الخليلي" بإخراجه من المدرسة ونفاه بتدخل من مجموعة من الفقهاء الحساد على حد قول ابن تغري بردي، ثم شفع فيه الشيخ سراج الدين عمر البلقيني وأقام بالقاهرة.

وفي سنة 801هـ وبعد وفاة السلطان الظاهر برفوق، ولي خطة الحسبة بمدينة القاهرة في مكان الشيخ تقي الدين المقريري ثم صرف منها بعد سنة من ذلك. ثم تولى في عهد السلطان المؤيد شيخ نظر الأحباس، وقد صار من أعيان فقهاء الحنفية وانكب على الاشتغال بالتأليف في الفقه والتاريخ واللغة والنحو والتصريف، مشاركاً في الحديث.

تصدى للإقراء عدة سنوات حتى أمر الملك الأشرف برسباي بتعيينه في منصب قاضي قضاة الحنفية في ديار مصر سنة 829هـ، إلى أن صرف منه سنة 833هـ. ثم تقلب بين وظائف القضاء والأحباس والحسبة والعزل منها تبعاً لتقلب الحالة السياسية، وتغير السلاطين إلى غاية 853هـ، حيث ضاق حاله في الكسب وصار يبيع من أملاكه وكتبه ليعيش حتى توفي ليلة الثلاثاء 04 ذي الحجة 855هـ. إن هذه المسيرة المليئة بالدسائس والتقلب بين الوظيفة لدى السلطان والعزل منها بسبب كثرة الطامعين في السلطة خلال العصر المملوكي، لم تكن الشيخ العيني عن الاشتغال بالعلوم والتأليف فيها، حيث كان واسع الاطلاع في المعقول والمنقول، أخذ عنه الكثير من علماء عصره.

وألف العيني في العديد من التخصصات العلمية خاصة الدينية والتاريخية ومنها: شرح البخاري في مجلدات بلغت نحو العشرين مجلداً، وشروحات كثيرة على كتب الفقه الحنفي، وشروحات على مؤلفات ابن مالك النحوي مثل التسهيل والألفية، وكتاب في المواعظ والرفائق في ثمان مجلدات، ومعجم مشايخه في مجلد، وكتاب طبقات الشعراء، وكتاب طبقات الحنفية، والتاريخ الكبير على السنن في عشرين مجلداً، والتاريخ الصغير في ثلاث مجلدات،

ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر وعدة تواريخ أخرى، منها: "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر"، و"السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي" و"سيرة الملك المؤيد شيخ" و"سيرة الاشرف برسبائي"⁸، و"اختصار تاريخ ابن خلكان"⁹.

2. تقديم كتاب "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان":

يصنف كتاب "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" ضمن كتب التاريخ العام، وعرف به مؤلفه الشيخ بدر الدين محمود العيني في مقدمته بقوله: "وقد كنت جمعت في حداثة سني وعنفوان شبابي تاريخا من مبدأ الدنيا إلى سنة خمس وثمانمئة، حاويا لقصص الأنبياء عليهم السلام، وما جرى في أيامهم، وسيرة نبينا صلى الله عليه وسلم، وما جرى بعده بين الخلفاء والملوك في كل زمان، مع الإشارة إلى وفيات الأعيان، متوجا بذكر الملوك العلوية، والملوك السفلية، ثم بدا لي أن أنقحه بأحسن منه ترتيبا، وأوضح تركيبا، مع زيادات لطيفة، ونوادير شريفة، وضبط ما يقع فيه من المبهمات من أسامي الرجال والأمكنة المذكورات وترجمته بعقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، وفصلته على فصول، تسهيلا للحصول، متوجا بمقدمة تنبئ عن أصل التاريخ، ومعناه، وعن سبب وضعه ومبناه"¹⁰.

والكتاب يقع في بعض نسخه المخطوطة في 69 مجلدا، وقام الدكتور محمد أمين بمشروع تحقيقه - في النسخة التي اعتمدها في المقال - مقسما إياه إلى على الفترات التاريخية ومسندا كل جزء لمتخصص في تلك الفترة التاريخية، واعتنى هو وبدأ بعصر سلاطين المماليك الذي عاش فيه المؤلف وكان شاهدا على الكثير من حوادثه خاصة منذ تولي الظاهر برفوق الحكم إلى غاية عهد الظاهر حقمق من دولة الجراكسة، وخاصة عصر السلطان برسبائي.

أما منهجه فهو لم يكتف بالنقل عن المؤرخين الذين سبقوه بل استخدم منهج النقد والتدقيق في تلك الكتابات، حيث نجده قد ناقش مجموعة من التواريخ خلال السنوات الأولى لقيام دولة المماليك البحرية¹¹.

3. النصوص السياسية المتعلقة بمدينة تلمسان:

ذكرت تلمسان ضمن كتاب العيني في ثلاث محطات تاريخية، ولما كان الكتاب يتبع نظام الحوليات، فقد ذكرت في حوادث سنوات 653هـ و679هـ و702هـ. وفيما يلي سنقوم بعرض النصوص الأصلية المقتبسة من الكتاب ثم نقوم بشرحها وتحليلها ومقارنتها مع ما ذكره المؤرخون الآخرون خاصة مؤرخي الغرب الإسلامي منهم.

3.1. النص الأول:

أخبار سنة 653 هـ:

دخول تلمسان في طاعة الحفصيين - فرع الموحدين بتونس:

شهد المغرب الإسلامي تحرك التزعات العصبية القبلية عقب ضعف الحكم المركزي في مراكش، وفقدان السيطرة على الأقاليم البعيدة خاصة في إفريقية وعاصمتها تونس وفي المغرب الأوسط وعاصمته تلمسان، وسعى بنو أبي حفص إلى الاستقلال وتأسيس الدولة الموحدية الثانية، ومباشرة إعادة فرض السلطان المركزي على كامل بلاد المغرب، لكن هذه المرة من تونس¹².

ولما كانت تلمسان تحت حكم بني زيان، وكان لا بد من إخضاعهم لتحقيق ذلك، تحرك الحفصيون¹³ إليها وأدخلوها في طاعتهم دون حرب، حيث بايعهم يغمراسن بن زيان¹⁴، وأوصى بينه بذلك.

يقول بدر الدين العيني في حوادث سنة 653 هـ: "فقم بنو عبد المؤمن¹⁵ على أبي زكريا¹⁶، ذلك وأسقط أبو زكريا اسم عبد المؤمن من الخطبة، وبقي متملكا لإفريقية وخطب لنفسه بالأمر المرتضى، واتسعت مملكته، وفتح تلمسان، والمغرب الأوسط، وبلاد الجريد....."¹⁷

في هذا النص ذكرت مدينة تلمسان في خضم الأحداث التي أدت إلى انهيار وزوال ملك الموحدين من عامة بلاد المغرب الإسلامي، حيث انفصل أبو زكرياء الحفصي فعليا عن سلطة الموحدين في مراكش، وكانت مظاهر الانفصال حينها تتلخص في قطع اسم الخليفة من الخطبة، وأخذ لقب الأمير، والقيام بعمليات عسكرية لتوسيع رقعة نفوذه السياسية والتي شملت إلى غاية تلمسان من ناحية الغرب.

"ثم تولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا، ثم سعى عمه أبو إبراهيم في خلعه، وباع لأخيه محمد اللحيني الزاهد¹⁸ على كره منه لذلك، فجمع أبو عبد الله محمد المخلوع أصحابه في يوم خلعه، وشد على عميه فقهرهما وقتلهما، واستقر في ملكه، وتلقب بالمستنصر بالله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ابن الأمراء الراشدين.

وفي أيامه في سنة ثمان وستين وستمئة وصل الفرنسيين¹⁹ إلى إفريقية بجموع الفرنج وأشرفت إفريقية على الذهاب، فقصمه الله تعالى، ومات الفرنسيين لعنه الله، وتفرقت تلك الجموع.

وفي أيامه خاف أبو إسحاق إبراهيم بن أبي زكريا، فهرب، ثم أقام بتلمسان، وبقي المستنصر المذكور كذلك حتى توفي حادي عشر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمئة.

وملك بعده ابنه يحيى بن محمد بن أبي زكرياء وتلقب بالواثق بالله أمير المؤمنين، وكان ضعيف الرأي، فتحرك عليه عمه أبو إسحاق إبراهيم الذي هرب وأقام بتلمسان، وغلب على الواثق فخلع نفسه، واستقر أبو إسحاق إبراهيم في المملكة....²⁰.

كانت تلمسان عرضة للهجمات المتكررة خلال هذه المرحلة الحساسة من تاريخ الغرب الإسلامي والتفكك السياسي الذي بدا للعيان عقب انهيار السلطة المركزية في مراکش، وصار لكل قبيلة قائد أو ملك يسعى إلى إثبات وجوده وأحقته بالملك، ورغم الأخطار الخارجية التي هددت كيان الأمة الإسلامية في الشمال الإفريقي ونقص الخطر الصليبي²¹ على وجه التحديد وبقيادة الإفرنج أو الفرنسيين كما يسميهم العيني، باعتبار أن فرنسا منذ العصر الوسيط وهي الراعية الرسمية للحرب ضد الإسلام والمسلمين في العالم وبتزكية من البابوية الكاثوليكية.

3.2. النص الثاني:

أخبار سنة 679 هـ:

"ومنها أن يعقوب المريني عزم على قصد ابن عبد الواد بتلمسان، فحشد يغمر بن عبد الواحد جماعة من مغراوة²² وغيرها، والتقيا على مدينة تسمى وجدة، فاستظهر بنو مرين على بني عبد الواد وقتلوا ونهبوا وسبوا ما أرادوا من عيالهم وأموالهم، ومنوا عليهم، وأطلقوا عيالهم، وعادوا بالأموال والمواشي إلى بلادهم"²³.

يشير هذا النص إلى سعي بني مرين²⁴ وهم قبائل زناتية تحركت من إقليم الزاب (بالصحراء الجزائرية) ودخلوا المغرب الأقصى، إلى افتكاك تلمسان من يد بني عبد الواد أبناء عمومته، وكان ملكها يغمراسن بن زيان والذي يسميه العيني يغمر بن عبد الواحد،

وناصرته قبائل مغراوة التي كانت تقطن المغرب الأوسط ولها نوع من الحكم الذاتي رقيقة بني توجين²⁵. ولما كانت سلطة بني مرين محصورة بين نهر ملوية والمحيط لأطلسي، فقد سعوا إلى السيطرة على تلمسان بكل الطرق، ومنذ بداية تأسيس ملكهم على أنقاض ملك الموحدين في مراكش، خاصة بعد دخولها سنة 668 هـ، وكانت تلمسان تشكل عائقا أمام توسعهم شرقا لفرص سيطرتهم على كامل بلاد المغرب على غرار بني حفص الذين تحركوا إليها من الشرق.

3.3. النص الثالث:

حوادث سنة 702 هـ:

نص حول وفاة عثمان بن يغمراسن وفك الحصار:

عمل سلاطين بني زيان أيام وسنوات الحصار الطويل على تسيير هذه الأزمة التي لم تتلى بها أي مدينة طيلة التاريخ إلى غاية ذلك العهد، حيث نفذت الأقوات ومات الناس جوعا، واضطرب القصر السلطاني، لكن الدولة لم تسقط وبقيت عاصمتها تلمسان صامدة قرابة الثمان سنوات.

ويذكر العيني بعض أخبار الأزمة التي عاشتها تلمسان وموت سلطانها بقوله:

"الأمير عثمان بن يغمراسن بن عبد الواد صاحب تلمسان.

توفي في هذه السنة على فراشه. وجلس بعده ولده محمد بن عثمان بن يغمراسن. قال بيبرس في تاريخه²⁶: وقد أمضهم الحصار²⁷ ومسهم الجهد. فأقام أربع سنين والمحاصرة مستمرة والمضايقة متضاعفة، وعدمت الأقوات وغلت الأسعار، فبلغ الحمل من الملح إلى مائة دينار، والحمل من القمح إلى ستين دينار كبارا، ولحم الفرس الواحد إلى مائة دينار، والشاة إلى عشرة

دنانير، والثور إلى ستين ديناراً. والدجاجة إلى ثلاثة دنانير. وورد على المحاصرين الخبر من بلاد العدو فأوجب رحيلهم²⁸.

كما يتضمن النص بعض أثمان اللحوم والتي شهدت غلاء كبيراً نظراً لنقصها الشديد، حيث لم تتوفر المساحة الكافية لتربية الماشية وممارسة الفلاحة.

ذكر قضية أبي يعقوب المريني صاحب المغرب ومقتله:

كان الحصار المريني الطويل على مدينة تلمسان قد ذاع صيته في المغرب والشرق، حتى وصلت أخباره إلى المؤرخين الذين توصلوا إلى تفاصيله من خلال ركب الحاج والسفارات القادمة من المغرب باتجاه مصر، وفي هذا الصدد دون لنا العيني حادثة مقتل السلطان المريني حاكم فاس المحاصر لتلمسان بتفاصيل جد دقيقة، وجاءت في النص التالي:

"وكان أبو يعقوب هذا بمدينة تلمسان، وهو نازل فيها، محاصر إياها، وكان قد ضايقها سنين كثيرة، ونفذ ما كان لأهلها ولصاحبها من الأزواد والأقوات، وحلت من سكانها، فمنهم من تسلل من الضر والضيق، ومنهم من مات، ولم يكن بقي عندهم إلى هذه الغاية إلا شئ يبرهم مقدار شهر لا غير، واتفق موته مقتولاً"²⁹.

"وكان سبب قتله: أنه كان قد تعلق بخدمته شخص من بني عبد الواد يسمى الزعيم، من أصحاب تلمسان، فحظي عنده، وبقي في خدمته سنين ثم غضب عليه، فسجنه مدة طويلة، وكان له وزير يقال له العز، فلما سجن الزعيم العبد الوادي تعرض العز الوزير إلى حرمة، ثم إن المريني رضي عن الزعيم، وأطلقه ونفاه إلى بلد الأندلس، واتفق بعد مدة أن ولدت جارية من جواري المريني اسمها إزرزارة بنتا، ومعنى هذا الاسم الغزالة، فبشر بها المريني فأنكرها، وقال: ما أعلم أنني باشرت أمها فقالت له إحدى النساء الحاضرات: إن مولاي

باشرها وهو على حالة سكر فسلم وأمسك، وبلغ الزعيم الخبر وهو يومئذ بالأندلس، وكان قد اطلع على ما فعله العز الوزير بحريمه، فأرسل يقول للمريني: إنني لم يشق علي تعرض الوزير العز إلى حرمي كما شق علي تعرضه لحرمك، وما فعله بإزراره حتى إنه أولدها الطفلة التي أنكرت كونها منك، وهي في الحقيقة منه، فاستشاط المريني غضبا، وأمر من ساعته بإحضار العز وجبه، وقلع عينيه، وصلبه، واستدعى الخادم الذي هو زمام داره واسمه عنبر، وأتمه بمواطأة العز على فساد حريمه، وأمر بإخراجه ليقتل، وفيما هم مارون به رآه جماعة أصحابه الأزمة والخدام، فسألوه عما جرى، فقال لهم: يجر لنا خير وهاهم ذاهبون بي إلى القتل وكلكم يقتل بعدي، فانظروا لنفوسكم ماذا تصنعون؟

وكان أبو يعقوب قد خضب لحيته بالحناء ذلك النهار، واستلقى مضطجعا في حضابه داخل داره، وليس عنده إلا بوابة الباب، فهجم عليه خادم من الخدم وفي يده سكين فضربه في جوفه وابتدر الخروج عنه، وأغلق الباب عليه، فصاحت البوابة فدخل أصحابه عليه فأدركوه وبه بعض الرمق.

وكان ابنه أبو سالم عنده فقال له: إني ميت فانظر في أمرك.

وقضى أبو يعقوب من يومه، فأمر ابنه أبو سالم أن تضرب الطبول، فضربت واستدعى أعيان القوم لمبايعته، فبلغ ذلك ابن أخيه أبا ثابت عامر بن عبد الله، وعمه يحيى، وكانا على مباشرة الحصار، فأشثورا واتفقا على أن يقصد أبا سالم ويمنعاه من السلطنة، وأن تكون لأبي ثابت دونه، ويكون عمه يحيى مدبرا للأمره، وأبرما هذا الرأي بينهما.

ولما اتفق المذكوران على هذا الرأي أرسلوا إلى محمد بن عثمان صاحب تلمسان العتيقة، وهو على شفا جرف هار لما توالى عليه من تضيق وحصار، وصالحاه، ورفعاه عنه

المحاصرة، والتمسنا منه المناصرة، فأمدتهما بمن كان قد بقي عنده من الجند، وتوجهنا نحو أبي سالم، فهرب منهما وخرج على وجهه، فحصل في يد بعض أهل البلاد، فأمسكوه وأرسلوا بخبرون ابن أخيه بأنهم قد قبضوا عليه، فأرسل جماعة من فوارس الفرنج والمسلمين فقتلوه هناك، وجاءوا إليه برأسه.³⁰

واستقر أبو ثابت المذكور في هذه السنة (706هـ)، وأمر بقتل الخادم الذي أقدم على قتل أبي يعقوب، فقتل من وقته، وأخذ الخدم كافة فقتلوا، وأضرمت لهم النيران، وزجروهم فيها بالرماح، ولم يترك أبو ثابت بمملكته خادما خصيا حتى أباده، ثم وثب على عمه بسعاية قومه فقتله ثاني يوم، فكان بين يحيى وبين أخيه أبي يعقوب يوم واحد أو يومان، ورحل أبو ثابت من تلمسان وأطلق لمحمد بن عثمان العبد الوادي كل ما كان عنده بتلمسان الجديدة من الحواصل والذخائر والغلال والأزواد، وكان شيئا كثيرا وأخذ المال صحبته، وكان من الذهب ثلاثمائة حمل، كما حمل اثنان وعشرون ألف دينار كبارا، ومن الفضة مائتين وسبعين حملا، ومن حفائظ الذهب التي تكتب في آخر جمعة من رمضان للتعوذ والتبرك على عادة المغاربة وقر اثني عشر بغلا، وسار إلى فاس....."³¹.

يروى العيني في هذا النص كيفية انتهاء الحصار المريني الطويل على تلمسان والذي عانت منه المدينة الويلات وقتل ومات من أهلها الكثير، واضطر من بقي منهم إلى أكل الجيف والأطعمة التي لا تطبقها النفوس، خاصة بعد تصميم بني مرين على إغناء البيت الزياني بالجوع والحصار، لكن لطف الله كان أقرب وانتصرت المدينة وأهلها على هذا الحصار الظالم، وقد بنى المرينيون مدينة جديدة قبالة تلمسان وسموها المنصورة أو تلمسان الجديدة ونقلوا إليها مقر السلطان لكي تكون عاصمة للمغربين الأقصى والأوسط، لكن دب الخلاف في بيت المرينيين

لأسباب ذكرها العيني في النص، واضطروا إلى مغادرة المنصورة إلى فاس وبذلك انتهى الحصار وانتصرت تلمسان وأعيد بناء ما تم تدميره من المدينة جراء القصف والحرب³².

خاتمة:

إن هذه النصوص وعلى قلتها إلا أنها مرآة واضحة لرأي أحد المؤرخين المشاركة وهو الشيخ بدر الدين العيني في أحداث الغرب الإسلامي عامة وتلمسان على وجه التحديد، حيث اقتبسها من مؤرخين آخرين على غرار بييرس الدوادار وغيره.

إن الاهتمام بهذه النصوص ودراساتها وتحليلها ورصد مواقف المشاركة من تاريخ المغرب الإسلامي هو من صميم عمل المتخصصين في هذا الباب، وحتى لا يتعكف الباحثون في تاريخ تلمسان والغرب الإسلامي عموما على النصوص المغاربية فقط، بل عليهم مقابلتها بالنص المشرقي الذي يعد فريدا في لغته وأسلوبه ودلالاته.

الهوامش:

¹ - بدر الدين العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987، ص 5-10.

² - المصدر نفسه، ص 5.

³ - نفسه، ص 10.

⁴ - عنتاب: قلعة حصينة قرب مدينة حلب. صفي الدين البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، مختصر معجم البلدان لياقوت الحموي، تح: علي محمد البحايي، مج 2، دار الجيل، بيروت، 1992، ص 977.

⁵ - حلب: مدينة في شمال سوريا بأرض الشام، ومن أكبر حواضرها بعد مدينة دمشق، كانت عامرة أيام المماليك ومركزا ثقافيا واقتصاديا مهما. صفي الدين البغدادي، المصدر نفسه، مج 1، ص 417.

6- أحمد بن محمد علاء الدين السيرامي (ت 790 هـ/1388م) وصفه ابن تغري بردي في المنهل بقوله: "الشيخ الإمام العلامة علاء الدين الشهير بالسيرامي الحنفي شيخ الشيوخ بالمدرسة البروقية". اختص في علم المعاني والبيان والفقه والأصول، وكان منقطعاً عن الناس ومعتزلاً عن أكابر الدولة، محباً لأهل العلم والطلبة، أقام بمدينة حلب، ثم انتقل إلى القاهرة وبقي بها إلى وفاته. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، المصدر السابق، ص ص 172-175.

7- المدرسة الظاهرية برقوق (أو المدرسة البروقية): أنشأها السلطان الظاهر برقوق بين عامي 786-788 هـ/1384-1386م، وكانت فريدة في ضخمتها، وقرّر فيها أربعة من المذاهب، وشرح تفسير وشرح إقراء، وشرح حديث وشيخ ميعاد بعد صلاة الجمعة، وجعل بها خزانة كتب.

ابن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج12، تح: إبراهيم علي طرخان، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1972 ص 113 - شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج3، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص 12.

8- السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص 131 - 135.

9- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج7، دار الكتاب اللبنانيين بيروت، (د.ت)، ص 286 - 288.

10- بدر الدين العيني، عقد الجمان، مقدمة المحقق، ج1، ص 11.

11- مقدمة المحقق، ج1، ص 13.

12- حول تاريخ الدولة الموحدية وتطورها يمكن الرجوع إلى: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: صلاح الدين الحواري، المكتبة العصرية، بيروت، 2006- أبو عبد الله الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966- عبد الحميد حاجيات، تاريخ الجزائر السياسي في عهد الموحدين، ضمن كتاب: الجزائر في التاريخ، ج3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

13- حول تاريخ الدولة الحفصية وتوسعاتها في المغرب الأوسط يمكن الرجوع إلى: بو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع، الأدلة البيئية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح: الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية

للكتاب، تونس، 1984- محمد بن أبي القاسم الرعيبي القيرواني ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية و تونس، ط 3، دار المسيرة، بيروت، 1993- روبرار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ج 1، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

¹⁴ - وهو يغمرا سن بن زيان بن ثابت بن محمد، ولد حوالي 603 هـ/1206م، وتولى حكم إقليم تلمسان في عهد الخليفة الموحيدي عبد الواحد الرشيد بن المأمون، الذي كتب له بالعهد على ولاية المغرب الأوسط وعاصمته تلمسان، وكان ذلك بداية ملكه. وكان يغمرا سن بن زيان يتميز بصفات وخصال أهلته للقيام بدور كبير في وضع الأسس المتينة لدولة بني عبد الوادي الناشئة، وتميز بمواقفه الحربية الكثيرة، خاصة ضد قبائل بني توجين ومغراوة، حيث حارب مواطنهم في منه محاولة لإخضاعهم وضممتهم إلى سلطته، كما كانت له مع بني مرين بالمغرب الأقصى عدّة حروب وكذلك مع بني حفص شرقا، ورغم هزائمه أمامهم، كان يدافع عن مملكته محاولا حمايتها من الأخطار التي كانت تتهددها شرقا وغربا، وتمكن يغمرا سن من التوسع غربا، وصار الحد الفاصل بينه وبين دولة بني مرين بالمغرب الأقصى وادي ملوية، كما امتد نفوذه إلى مدينة وجدة وتاوريرت وإقليم فجيح، وتوسع في الداخل وأخضع مازونة وتنس، حتى أطراف مدينة بجاية. خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يغمرا سن دراسة سياسية و حضارية، 633-681 هـ/1235-1282م، تلمسان، 2005

¹⁵ - يقصد المؤرخ هنا خلفاء الموحيدين أو الأسرة المؤمنية الكومية التي حكمت في مدينة مراكش واتخذتها عاصمة للدولة الموحدية أو المؤمنية بعد إسقاطهم لدولة المرابطين، وقد حكم الموحدون المغارب من الأقصى والأوسط والأدن إضافة إلى الأندلس.

¹⁶ - عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدئ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ج 6، ص 594.

¹⁷ - العيني، ج 1، ص 101.

¹⁸ - أبو عبد الله الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966، ص 62.

¹⁹ - المقصود هو الحملة الصليبية الثامنة التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع الذي قاد قبل ذلك حملته السابعة على مصر وأسره المماليك وأطلق سراحه بقدية كبيرة، لكنه لم يفهم الدرس من الهزيمة الأولى واعتقد بأن إفريقية أقل حصانة من مصر والمشرق، فأصيب بالطاعون ومات سنة 669 هـ/1270م. بالأعرج عبد

الرحمن، العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين دول المغرب والمشرق الإسلامية (ق 7-9هـ/13-15م)، دار النشر الجديد الجامعي، الجزائر، 2016، ص 62.

²⁰ - العيني، ج 1، ص 102.

²¹ - عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983، ص 91 - 92.

²² - مغراوة: من قبائل زناتة، كانت مواطنهم شمال ونشرس ووادي شلف إلى غاية البحر، ومن النتيجة إلى وادي مينا. عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 7، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص 50.

²³ - العيني، ج 2، ص 258.

²⁴ - يعود أصل بني مرين إلى قبيلة زناتة وهم أبناء عمومة بني عبد الواد، وينسبون إلى جدهم مرين، وكانوا بدوا يجوبون بأنعامهم في القفار والصحاري في نطاق يمتد من جنوب مدينة القيروان إلى، صحراء بلاد السودان، وحدد عبد الرحمن بن خلدون مجال إقامة القبائل المرينية بالفقر من فكيك إلى سجلماسة في الجنوب، إلى ملوية في الشمال وربما تقدموا شرقا إلى بلاد الزاب. عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج 7، ص 167.

²⁵ - بنو توجين: من قبائل زناتة، كانت مواطنهم شرق تلمسان في منطقة المدية و الونشريس. ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 318- مبارك الميللي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ت)، ص 471.

²⁶ - يقصد بيبرس الدوادار، وكتابه زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، وهو كتاب مملوكي مهم جدا حول تاريخ الغرب الإسلامي.

²⁷ - حول الحصار المريني الطويل لمدينة تلمسان يمكن الرجوع إلى: عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج 7، ص

194 - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 210 - أبو عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح: محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب،

الجزائر، 1985، ص 130- عطاء الله دهينة، الحصار الطويل، ضمن كتاب: الجزائر في تاريخ، ج 3، ص 369-379 جلطي سعاد، الحصار المريني الطويل لمدينة تلمسان وتداعياته (698-706هـ/1298-

1307م)، مذكرة ماستر في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي، إشراف د. عبد الرحمن بالأعرج، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، جوان 2018.

28- العيني، المصدر السابق، ج 4، ص 295.

29- العيني، المصدر السابق، ج 4، ص 431.

30- العيني، المصدر السابق، ج 4، ص 433.

31- العيني، المصدر السابق، ج 4، ص 434.

32- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج 7، ص 194.